إضاءة

يدورُ هذا الكتابُ حولَ شخصيَّةٍ نبتَت في مناخٍ غيرِ إسلاميّ ثُمَّ انضوت تحتَ رايةِ الإسلام.

ومن ثَمَّ فإنَّ لهَا ما لهَا، وعليها ما عليها، فلا يعجل أَحدٌ بالحكمِ على ما لهَا دونَ الذي عليها، كما لا يعجل أَحدٌ بالحكمِ على الذي عليها بمعزلٍ عن الذي لها.

ومثلُ هذا الكتاب في هذا السِّياق يُقرأُ كاملاً غيرَ منقوصٍ، أو يُقرأُ من آخرِهِ إلى أَوَّلِهِ ـ إنْ جازَ التعبير.

وإنِّي لمدينٌ بهذهِ الإضاءة إلى توجيهِ أُستاذِنا العلاّمة شُعيب الأَرناؤوط الذي ما فتىءَ يُعيدُ إلى الثَّقافةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ صفاءَها ورواءَها، وينفي عنها كُلَّ نقيصةٍ أو شائبةٍ؛ وإلى مديرِ دارِ البشير الأخ رضوان دعبول، الحريص هو أيضاً على نقاءِ الثَّقافةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، والوصولِ إلى الحقِّ والموضوعيَّة بأصدقِ الحديثِ، وأقربِ الموارِدِ، وأفضلِ السُّبُلِ. وإنَّهُ ليسرُّني أنْ أسمع وأنْ أرى إنْ كانَ ثَمَّةَ من توجيهٍ، أو إرشادٍ، أو إضافةٍ، أو استدراكٍ، أو استطرادٍ من العلماءِ الأَفاضلِ والقُرَّاءِ الأَكارم.

المؤلف

كلمة الناشر

عندما يعرض مؤلف في كتابه لإحدى الشخصيات ذات السجل الحافل، فإنه يدرك بلا شك أن ما يقوم به ليس بالأمر الهين، لأن هذا العمل يتطلب حذراً وقدرة على تخطي العثرات، وتحمل مشاق البحث لتؤتي دراسته أكلها على الوجه الصحيح، وتوضع الأمور في نصابها.

إن اقتحام لجة بحث معقد كهذا البحث الذي يدور حول «كعب الأحبار»، لا بد أن تسبقه خلفية ثقافية وسعة اطلاع ودراية بالرجال، وتمكُّن من علم نفس الأحياء، ثم يضاف إلى ذلك كلّه تحمّل الباحث لتبعة البحث والاستقصاء، وتصور الأوضاع الاجتماعية التي سادت في عصر الشخصية مدار البحث، حتى إذا أمسك بالقلم ليكتب وجد نفسه ينهل من معين عامر بالمعلومات الطيبة الموثقة، وأنِسَ في نفسه المقدرة على تحمل مسؤولية الكلمة.

والشخصية التي يعرض لها المؤلف في الكتاب الذي بين أيديكم، هي شخصية كعب الأحبار الذي كان يهودياً ثم أسلم، فهو يحمل موروثات علوم اللاهوت، وأخبار اليهود التي وصلته عمن سبقه، فصار ـ بعد إسلامه ـ يسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقارنه بما لديه من أخبار ومرويات هي في الأصل موروثات يهودية، ويحاول أن يعرضها من جديد بأسلوبه، ويحدث الناس من معين ذاكرته حتى أن عمر بن الخطاب هدده يوماً بالطرد إلى بلاد القردة.

وهذا أمر من الضروري للقارىء أن يبحث فيه لأنه مكمن خطر.

وموضع آخر فيه يكمن الخطر يتمثل في أن كعباً كان يأتي إلى الصحابة حديثي العهد بالإسلام ممن لم تتوفر لديهم اليقظة التامة، والقدرة على التوثق من الأخبار صحيحها ومغلوطها، فيحدثهم بموروثاته السابقة من الإسرائيليات، وينقلونها عنه بدورهم فتنتشر بين الناس، وربما خلطها بعضهم بالأحاديث النبوية الشريفة، وهذا ما وقع لرواة أبي هريرة رضي الله عنه.

مما سبق ندرك عظم المسؤولية أمام ما كتب المؤلف، وما أورد في هذا الكتاب ـ وهو في أصله نقل من كتب تاريخية موثقة ـ، وندرك أيضاً أهمية التيقظ والتحليل في المواضع التي تستدعي ذلك من الكتاب، فقد ترك المؤلف للقارىء في كتابه شيئاً من هذه المواضع، ليقوم بتحليلها وتمحيصها.

والمؤلف يسلط الأضواء على سيرة كعب، ويحاول من خلال اطلاعه الواسع أن يقدم للقارىء بحثاً موثقاً أصيلاً، إلا أن ذلك لا يغني عن وجوب يقظة القارىء، وتمتعه بمستوى لائق من المسؤولية، وقدرته على فهم النصوص، واستخلاص الفكرة، ومعرفة الخبر الصادق، عندها يكون القارىء الكريم قد أفاد مما قدمنا له، فانتفع به ونفع غيره.

والله ولي التوفيـــق

رضوان دعبول

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنا محمَّدٍ خاتم الأَنبياءِ والمُرْسَلينَ، ومَنْ تَبِعَهُ بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، وبعد:

فهذا هو الكتابُ الثاني في سِلسِلَةِ العُبورِ الحَضاري للمكتبة العربية الإسلامية، وهو يَدُورُ حول «كعب الأَحبار» التَّابعيِّ الذي شَغَلَ الأَخباريين والمُؤَرِّخينَ «الحَبْر صاحب الكُتُب والأَسفار، المثير للمكتوم والأَسرار، والمُشير إلى المَشاهِدو الآثار»[1].

وكنت قد أَخذتُ نفسي بتوطئة ما قبل النَصِّ من رُواة وأَخباريين ومُعلِّقين وذلك كيما يتكامل نَسيجُ التأليف في المكتبة العربية الإسلامية ويتتامَّ، فيَصِلُ الطالبَ والدَّارِسَ والقارىء بالماضي العريق، ويفتَحُ عليه مَنافذَ من المُعاصرَة والحاضر. وإنَّ في ذلك لإذكاءً لمواهب الطَّلبة للتحرُّك تِلْقاءَ هذا التُّراث الوارِفَةِ ظِلالُهُ، الحافِلةِ نُصوصُه ومُوحياتُهُ.

وَكُنتُ فيما وقَعَتْ عليه عَيْنايَ من شَخصياتٍ ومُؤَلِّفينَ وأَعلامٍ ذوي مَكانةٍ مَرمُوقةٍ في الإسلام أَتَخيَّرُ ما هو أَقربُ إلى المكتبة العربية الإسلامية، وما هو أَمَتُّ صِلةً بالعلم والتعلم وأَخلاق أَهل العلم في الإسلام. إنَّ ذلك ـ في رأْيي المتواضع ـ لَما يَجعَلُ النُّصوص في عيون ناشئتنا أَكثر بهراً، وأَحلى رونقاً، وأَجمَلَ للمُعاودَة مرَّة بعد مرَّة؛ وفي كُلِّ مرَّةٍ من زوايا مختلفة، ومن قرائنَ متعدِّدةٍ. ولَكَمْ

---

(١) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. ط٣ (دار الكتاب العربي. بيروت. ١٩٨٠م) ٥: ٣٦٤.

كُنتُ أَحْمِلُ في ذهني رأْياً، أَو موقفاً فقهياً قد وَقَرَ في نفسي من خلال نص أَو قرينة أَو عِظَةٍ أَو مَجلِسِ عِلمٍ ثم أَراه من زوايا أَوسع، ووضوح أَشمل وأَكملَ من خلال سِيَر الشخصيات الإِسلاميات، ومواقع التقائهم، واختلاف اجتهاداتهم. ما كان أَحلى بَرْدَهُ على الكَبِدِ حين كان اللِّقاءُ معه، والفَوزُ به ضِمن التَجلِّياتِ الأَوضح!.

وَكُنتُ في بَحثي من أَوَّلِهِ إِلى آخِرِه ـ واضِحَ المَوقِفِ، راسِخَ اليَقين، إِسلامياً كما كانه الصَّحابَةُ رضوان الله عليهم، واعِياً على النُّصوصِ كَمِثْلِ ما كانه تلاميذُ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم ﴿**الذين يستمعون القول فَيَتَّبعونَ أَحسَنَهُ**﴾ [الزمر: ١٨]؛ مُتواضِعاً أَعترف بجَهْلي في المَسائل التي لا يطالُها فَهْمي، أَو التي حيلَ بيني وبينَ العُبُور إِليها سَواءٌ أَكان ذلك من جهة طرائق التعلم، أَو اختلاف العصر، أَو نفاد الزَّاد الثقافي، أَو اختزام المخطوطات وضياعها، أَم قُصورِ المكتبات في التَزوُّد بكل ما أُنتِجَ ويُنتَجُ. وعُذري في ذلك أَن أَستكمل ما غاب، وأَن أَجبُرَ ما انكسر، وأَن أَعودَ عن الرَّأْي الفَطير إِلى الرأْي المُختَمِر؛ وأَن أَنتقل من موقع في الرُّؤية إِلى موقع تكون فيه الرُّؤية أَوضح وأَعمقَ، والتثبُّتُ أَرسخَ أُصولاً وأَبْسَقَ.

وكَعْبُ الأَحبارُ (ت ٣٥هـ) من أَوائل المؤلفين في المكتبة العربية الإِسلامية وهو آخر سَنَدٍ في كَثيرٍ من الرِّوايات المُتَّصلَة بالتَّاريخ وبخاصَّةٍ فَضائلِ الأَماكن المُقدَّسةِ.

وقد استَهوتني دِراسةُ هذه الشخصية بحُكْم ما كانه كَعْبٌ مِن تابعي أَسلَمَ بعد أَن كان يهودياً؛ وكان أَن أُتيحَ له ظروفٌ خاصَّةٌ جَعَلَتْ منه مُعلِّماً ومُتعلِّماً في الوقت ذاته؛ وجَعَلَتْ منه رَقيباً على حَركات يَهودَ وماتُوسوسُ به نُفوسُهم في عهد كانت الحضارة الإِسلاميةُ تجتاح فيه الثَّقافاتِ والحضارات أَمامها، وكان له فَضْلُ دُخولِ الكثيرين منهم في الدِّين الإِسلامي ـ كما سيأْتي بيانهُ إِن شاءَ الله تعالى؛ وفي الوقت ذاته جَعَلَت منه رَقيباً على حياة الصَّحابة والتابعين رضوان الله عليهم بحيث يَحارُ ـ مع ذلك كُلِّه ـ المسلمُ كيف أُتيحَ لشخصية كهذه أَن تقف كُلَّ هذه المواقف

من غيرِ أَن تكون مُتورِّطةً في قلم استخبارات أجنبي على درجة عالية من الكفاءة والتنظيم والتنفيذ والإخراج!.

وبِحُكمِ دراستي في جامعات أمريكية وبَريطانية، وبِحُكمِ دِراستي للنُّصوص الدينية المختلفة في دروس اللغات السَّاميَّة (ومنها التوراة العزرية بالعبرية القديمة)، وبِحكمِ مُجادلتي لمتدينين كُثرٍ من مُختلف بقاعِ الأَرض في جامعة أُكسفورد وجامعة لانكستر في المملكة المتحدة (وكُنْتُ كثيراً ما أُلقي خُطَبَ الجمعة في مسجد مدينة أكسفورد وكان يؤمُّه كثيرون من الضُّيوف الذين يأتون للاستماع إلى حقائق الدِّين الإسلامي وتنعقد المناقشات بعد ذلك؛ وكُنتُ كثيراً ما أُلقي خُطَبَ الجمعة والعيدين في مسجد جامعة لانكستر؛ كما كنت رئيس الجمعية الثقافية الإسلامية فيها. ومن خلال نشاط الجمعية المذكورة أَسلَمَ يهودُ وأَسلمت يهودياتُ من جنسيات إنجليزية وأمريكية) فإنني وجدتُ في تَتَبُّعِ شخصية كعب الأَحبار، وموقِعها من المكتبة العربية الإسلامية، وتقليب ثقافة هذه الشخصية ما أشعرني دِفْءَ التعامُل مع هذا اللَّونِ من النَّشاط التَّأليفي دُونَ أن أكون في ذلك تلميذاً مَسُوقاً، أو مُتَشكِّكاً زِمِّيتا.

إنَّ في عناصر ديننا الإسلامي الحَنيف من القُوَّة والإيحاء ما يُحَبِّب لأَهل العقائد الأُخرى أَن يطيروا على أَجنحةٍ من أَشواقٍ مُعانَقَةً للفكر الإسلامي واهتداءً بهديه؛ وإنَّ في عناصر حياتنا الاجتماعية، وطرائق الكَرَم، وحسن الضِّيافة وكثرة الحياءِ، وقلَّة التَوقِّي، والإفراط في حُسْن الظنِّ، ما جعل شُعوباً بأكملها تأكل خيراتِ هذه الأُمَّة وتستأْثر بأَخصب بقاعها الزراعية والاستراتيجية، تكون مع عامَّة المُسلمين حين يكون الخَيرُ لعامَّتهم؛ وتكونُ مع نفسها، ومع عُقَدِها النفسية، ومع مراراتها القديمة، ومع ذكرياتها المؤلمة، ومع الحسد والشنآن إن أُصيبَ من جِسْم عامَّة المسلمين جُزْءٌ أو جَارِحة.

فهل هذه النَّقيصة مسؤولٌ عنها نِظامُ حياتنا الاجتماعي أم أَنَّ العَداواتِ للأُمَّة

الإسلامية أكبرُ من أن يَستأْصِل شأْفَتها تَحوُّلٌ في الاعتقادِ، وتغيرٌ في المَذْهبِ؟!

إنَّنا ـ في هذه المرحلة ـ نقف على عَتَبةِ وَثْبَةٍ حَضاريَّةٍ إسلامية كُبرى. وآن لنا أن نأخذ بجميع أسباب الظَّفَر، فَنَعْلَمَ أين مكامِنُ القُوَّة في وُضوحِنا الفكري من حيث أننا أُمَّةٌ وَسَطٌ شُهداءُ على النَّاس، ونَعْلَمَ أين مكامِنُ الاختراقِ الأمني (الأمن الاجتماعي، والأمن الغذائي، والأمن الاقتصادي، والأمن الثقافي، والأمن الشِّعري، والأمن النثري، والأمن القَصَصي، والأمن التَسْلَوي (من التَّسلية والسُلُوِّ والسُّلوان)، وأَمْن السَّمر والأَسمار والمُسامرات والدَّرْدَشات، وأَمْن النِّكاتِ والأَحاجي والأَلغاز والأدب الشعبي، وأدب العامِيَّات، والعنعنات والزُّعْنُفاتِ) فَنَقومَ على تَحصِينها كي تَبقَى الأُمَّةُ الجَديدةُ بَعيدةً عن مواطن التَّصادم المُهلِك، والتَّصفيات الجَسدية التي أَتَت على كُلِّ ما هو عَربيٌّ تحت جميع الشِّعارات السِّياسية والدَّورانِ معها؛ وخَلَّفت الدَّولة الإسلامية مَراحاً للمُغامرين من بني بُويه، وسَلجوق، وكافور، ومَمْلوك، وعثماني، وألباني، ومجهول الحَسَب والنَّسب.

إنَّنا في هذه المرحلة ـ نقف على عَتَبة وَثْبةٍ حضارية إسلامية كبرى؛ وآن لنا أَن نُعيدَ قِراءة نُصوصِنا بعيون جديدة؛ وأن نُحْسِن قِراءة النُّصوص وما وَراءَ النُّصوصِ؛ وأن نتصارَحَ، وأن نضع النِّقاط على الحُروف؛ وأن نُقدِّم ثَمَرات دِراستِنا وبحثنا خُلاصاتٍ تكون في متناول صانعي القرارات السِّياسية والأَمنية والمستقبلية في الوطن الإسلامي الأكبر الممتد غير المُثَلَّم بالقوانين العَرْجاء الغاشمة التي كانت تسمح لكل عدوٍّ لهذه الأُمَّة أن يَنتَفِع من ينابيع النِّفط والإثراء فيها ويَموتُ ضُعفاء المسلمين جُوعاً في رائعة النَّهارِ لأَنَّ مصلحة الدُّول الكبرى ومصالح بعض المغامرين المنتفعين من التجزئة والبعثرة والتمزق هي في أن يموت هؤلاء جوعاً.

وبِهَدْيٍ من هذه المظلَّة الفكرية، وانسجاماً مع النَّفَس (بفتح الفاء المعجمة) الجديد الذي نَودُّه أَن يكون في الدِّراسة والبحث والمكتبة العربية فقد عَلَّمْتُ على

المصادر والمراجع التي انبرت للحديث عن كعب الأحبار سواءٌ من موقع الإعجاب أو من موقع الشَكِّ والارتياب. وأَفَضْتُ في الاقتباس ونقل النُّصوص فيما اتَّصل بأقوال كعبٍ حيث الموازنات بين الإسلام من جهة واليهودية من جهة أخرى. وأَفَضْتُ بالتعريف برجال السَّند ورُواة الأخبارِ الذين خالَطَتْ أسماؤُهم النُّصوصَ. ثم توسَّعتُ في موضوع المؤامرة التي دُبِّرت لمقتل الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه تجلية لحقائق الأُمور، وتثبُّتاً من تَوَرُّط كعبٍ فيها، أو مِنْ بَراءَته منها؛ ولتكون للأجيال المُقْبِلة «بُورصةً» جديدة نُحسِنُ معها التَوقِّي والحِفَاظَ على نَظافةِ الحُكْم الإسلامي من لوثات الهواء الفاسد، والهواء غير الصحِّي؛ لا ظالمينَ ولا مظلومينَ.

وعَقَدْتُ موازنةً بين كعب الأحبار بصفته يهودياً أسلم في الماضي وبين محمد أسد بصفته يهودياً أسلم في القرن العشرين وذلك لتلمُّس خط السَّير الواحد الذي تَنْحُوه مثل هذه الشخصيات في المجتمع المسلم بعد أن تكون قد فارقت عقائد آبائها وأجدادها.

ثم عَقَدتُ موازناتٍ بين كعب الأحبار وشخصيات يهودية أسلمت فحَسُن إسلامها كمثل عبد الله بن سلام؛ وبينه وبين شخصيات يهودية أسلمت فلم يَحْسُن إسلامها كعبد الله بن سبأ الذي مَثَّل دَورَ البُطولة (من وجهة النَّظر اليهودية) في الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك سنة ٣٥هـ.

وفي ذلك كُلِّه كان الوُصولَ إلى الحقِّ والحقيقة رائدي وديدني، وفي ذلك كُلِّه كان النُّصْحَ لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ ولجمهور المؤمنين ضالَّتي ومَنْشَدي. وإنَّه لَيَسُرُّني أن أسمع وأن أرى إن كان ثمَّة من توجيه أو رؤيةٍ أفضل، وبخاصَّةٍ في مثل هذه الآفاق الدِّراسية التي تَتماوجُ فيها التَأَوُّلات والاجتهادات وتَمُورُ.